مناقشة الاعمال الكاملة لساطع الحُصْري بين العروبة والعلمانية

محمد عيسى صالحية
كلية الآداب، جامعة اليرموك

شهدت السنوات الاخيرة تنامي العناية بأعمال ساطع الحصري في أوساط الباحثين العرب والأوروبيين. فقد قام مركز دراسات الوحدة العربية سنة ١٩٨٥م، بنشر الأعمال الكاملة لساطع الحصري في ثلاثة مجلدات ضخمة جاوزت الثلاثة آلاف صفحة، وقبل ذلك صدرت الطباعة السابعة من كتابه «العروبة أولاً» الذي ظهر سنة ١٩٥٥م، وكذا أجزاء متفرقة من أعماله المختارة، سنة ١٩٧٤م، ١٩٧٥م. وهل من باحث في وقتنا هذا، يناقش أو يحلل أو يؤطر أو يؤدلج للفكر العربي الحديث دون ان يكون لساطع الحصري مكان بارز فيما يكتب؟ فندوة الحياة الفكرية في المشرق العربي ١٨٩٠-١٩٣٩، خصصت حلقة لموضوع «قراءة أخرى في مفهوم الحصري عن القومية العربية». وحين كتب ناصيف نصار كتابه عن «تصورات الأمة المعاصرة، دراسة تحليلة لمفاهيم الأمة في الفكر العربي الحديث والمعاصر» جعل له فصلاً خاصاً سماه «بالتصور اللغوي التاريخي» قصره على جهود ساطع الحصري في صياغة التصور اللغوي للأمة، واتكأ على خصائص ذاك التصور الثلاث لينفذ إلى التصور اللغوي الميتافيزيقي الذي مثلته جهود زكي الأرسوزي.

وقبيل سنواتٍ محدودة أعيدت كتابة سيرة حياة الحصري، وألقيت عليها أضواء جديدة، حيث أقدم محمد عبد الرحمن برج على مناقشة سيرة الحصري في كتابه أعلام العرب (ساطع الحصري)، ركز على قوة ايمان ساطع الحصري وثباته في الدفاع عن معتقداته

القومية، حتى إذا أشاح عنه القوم وجوههم، آثرا المعيشة في غرفة متواضعة في احد فنادق القاهرة «فندق بانسيون فينواز»، بعد أن باع شقته، يقتات بلقيمات محدودة، يعجنها بنور عينيه ويكتفي بدخل ضئيل من موارد كتبه ومقالاته، ويرفض كل العروض التي قدمت لمساعدته، وسجل أحمد فوزي في كتابه سسير وحكايات»، أخبار لقائه بساطع الحصري، وبث القارئين لواعجه وانطباعاته عنه.

ومهما كانت الاتجاهات الفكرية لهؤلاء الباحثين، فإن النتائج النهائية لأبحاثهم لا تعدو الوصف، أو النقد المتسامح، حيث تبدو نظراتهم إلى جهود ساطع الحصري فضفاضة منفلتة، بدون نسق ولا إطار. ولعل الدراسات التي صدرت عن الأمريكي وليام ل. كليڤلاند، والروسية تاتيانا تيخونوفا، وعبدالعزيز بن باز وصالح بن عبدالله العبود، تمثل اتجاهات فكرية مجددة حيث عمل كل واحد من هؤلاء على دراسة جهود ساطع الحصري مع تباين في المنهج بينهم وصولاً لتحديد سمة بارزة في فكر الحصري، وإعطاء ذاك الفكر لوناً محدداً موصوفاً. فكليڤلاند في كتابه عن الحصري، يحاول أن يبرهن على النقلة الفكرية عند الحصري من الفكرة العثمانية إلى العروبة، ولذا تراه يناقش سيرة حياة الحصري «العثماني» كما سماه، وظروفه، وتصديه للحديث عن القومية العربية باعتباره الناطق عنها، وانشاء المؤسسات القومية، والفكر القومي عند ساطع الحصري، وتعريف الأمة، والدعوة إلى الوحدة والتصدي لخصوم الوحدة (الاستعمار والإقليمية)، وقيمة التاريخ، ومشكلة الإسلام والتجديد الذاتي (التضامن والتضحية). أما تيخونوفا فتدرس ساطع الحصري باعتباره «رائد المنحى العلماني في الفكر القومي العربي». وتعالج كما جاء في مقدمة كتابها «المراحل الأساسية في حياة الحصري وتتبع الاتجاهات الرئيسية في فكرة النظري ونشاطه العلمي»، فتعرض لنظرية الحصري في القومية والعروبة تدرس آراءه السياسية والاجتماعية والتاريخية والتربوية وتبين الظروف الاقتصادية والاجتماعية والايديولوجية التي أحاطت به وأثرت في تطور أفكاره.

وينقد عبد العزيز بن باز، رئيس الرابطة الإسلامية عام ١٣٩٠هـ، القومية العربية على ضوء الإسلام والواقع، وهو وإن لم يذكر ساطع الحصري صراحة، فإن كتابه «نقد القومية

العربية». جعله بصورة عامة لنقد فكر ساطع الحصري ومعتقداته القومية، وعلى منواله نسج صالح بن عبدالله العبود في كتابه «فكرة القومية العربية على ضوء الاسلام» ولكنه كان أكثر ايضاحاً إذ خصص الفصل الاول من كتابه لعرض حقيقة فكرة القومية العربية في تعبيرها النهائي من مصادرها، ساطع الحصري، بمعنى أن العبود تناول أربعة مصادر أخرى غير الحصري، لكن الحصري حظي بمرتبة السبق نقداً، فعرض العبود للتعريف بحال الحصري، ومنهج الحصري وخطته ونشوء الفكرة القومية، واللغة والتاريخ، وعناصرها ونقدها، ويبدو أن وصف فكر ساطع الحصري بالعلمانية تارة وبالتحول عن العثمانية تارة أخرى، مرده إلى تلك الدراسات التي جعلت من الحصري محور اهتمامها الرئيسي. فكيف يرى كليفلاند التحول الفكري عند ساطع الحصري من العثمنة إلى العروبة؟.

يعتقد كليفلاند أن تحول ولاء ساطع الحصري من العثمانية إلى العروبة سببه طغيان النزعة القومية التركية على الشعب الذي كان عماد عصبية السلطنة العثمانية، فالنزعة العثمانية بعد الحرب العالمية الاولى لم تجد ذات نفع على الإطلاق، ولا تواكب مفهوم الحصري بل زادته غربة، فكان الانتقال والتحول، والمسألة في رأينا أبعد من ذلك بكثير، تعود بجذورها إلى أزمة الدولة العثمانية نفسها منذ اواخر عهد السلطان سليمان القانوني وتنسحب على عهود من تلوه، أمثال السلطان سليم الثالث ١٧٨٩-١٨٠٧، وقضايا الامتيازات وحركة الاصلاح العثماني في مراحلها المختلفة، والخط الشريف الهمايوني (الجلخانة، سنة ١٨٣٩م)، ثم منشور التنظيمات، سنة ١٨٥٦م، وما أعقب ذلك من فتن واضطرابات وحروب لفت الدولة العثمانية، كان من اهم نتاذجها التي يقفز المؤرخون عنها (تجاوز سياسة الشروط العمرية)، التي كانت تحكم العلاقة بين المسلمين في الدولة العثمانية وأهل الذمة من نصارى ويهود، وتمتع الآخرين بحق «رعايا الدولة العثمانية».

ثم تلك المحاولات التي بذلها نامق كمال ورفاقه من الاصلاحيين، الذين أنشأوا لهم جمعية سنة ١٨٦٥م، والذين اعتمدوا التوفيق بين النظم السياسية الغربية ونظرياتها والممارسات الإسلامية والعثمانية ولكن على اساس أخلاقي إسلامي، ونادى هؤلاء بالغاء

نظام الملل واحلال القومية العثمانية محلها، لينمو شعور الانتماء للوطن، رداً على مؤامرة مؤتمر برلين، سنة ١٨٧٨م، حيث نما الاتجاه نحو ضرورة حماية ممتلكات الدولة العثمانية من التجزئة، والحفاظ على وحدة أمتها من التمزق، غير أن الأفكار الجديدة الوافدة من الغرب أخذت تهز أسس التجانس في الدولة العثمانية، فانتجت نماذج جديدة للهوية والولاء، لا سيما بعد نجاح الثورة اليونانية، والتحولات السياسية عند الصرب والبلغار.

وحتى تتضح الصورة، فلا بد من الإشارة إلى أن كلمة عثماني، ما كانت تطلق إلا على المسلم فقط، والكيان العثماني المتبقي ما كان في جوهره إلّا كياناً إسلامياً يقوم على أساس الوحدة الإسلامية التي تتخذ فيها السلطنة العثمانية مكانة القيادة في الدفاع عن الإسلام لمواجهة خطر عدوان غربي. ويعتبر قيام جماعة الاتحاد والترقي من «طلبة المدرسة الطبية العسكرية في استنبول سنة ١٨٨٩»، مرحلة جديدة في تطوير مفهوم العثمنة فهم «يطالبون باصلاحات لا تختص بهذه المقاطعة أو تلك، بل تشمل السلطنة كلهاُ، ولا تقتصر على قومية واحدة، بل تعم جميع العثمانيين، أكانوا يهوداً أم مسيحيين أم مسلمين، ويرغبون في التقدم على درب المدنية، لكن في سبيل تعزيز العثماني، واحترام ظروفه الخاصة في الوجود».

في ظل تلك الأجواء الفكرية، تكونت ارهاصات ساطع الحصري الفكرية الأولى، ففي البلقان حيث أمضى ثماني سنوات مدرساً للعلوم الطبيعية نما وعيه السياسي، وزاد إحساسه بالحافز القومي أثر اتصاله بالجماعات المعارضة للسلطان عبدالحميد الثاني في أوروبة العثمانية، وفي فلورينة –ولاية المنستير– التقى بمجموعات الثوار من اليونانيين والبلغار، التي كانت تتخذ من فلورينة قاعدة لها، وهناك صادف أول مرة، حركة قومية وصفها في محاضراته عن نشوء الفكرة القومية بأنها «منازعات ضاربة حول الكنيسة والمدرسة» ولكن الحصري تأثر كثيراً بالمكانة التي خصت بها اللغة القومية في التربية، وبمحاولات القوميات المناضلة لاكتساب أنصار لها.

ويقرر كليفلاند بأن جماعة الاتحاد والترقي التي تتخذ من المنستير مقراً لها اتصلت بساطع الحصري، ولكنه لم ينضم إليها، وإنما كان يؤمن بأن استعادة الدستور واستبداله بحكم عبدالحميد كانا الوسيلة الفضلى لصون السلطنة العثمانية، وظهر نشاطه واضحاً، حين اسندت إليه مهمة استقبال الوفود التي قدمت للأعراب عن تأييدها للدستور، ونشرت جريدة نور الحقيقة خطبتين لساطع الحصري فيهما الأمنية والأمل بتحقيق المساواة لكل العثمانيين، وكان ساطع على رأس المرحبين بعودة نيازي (أحد قادة الاتحاد والترقي). وأكبر فعله بتأييد الدستور وحيا في مرة ثالثة بحرارة وفد جماعات بلغارية جاء يسأله التأييد للدستور، ونبه إلى ضرورة اعتماد مناهج الاصلاح في كنف الدستور دون السعي للاستقلال بدعم الدول الأجنبية.

وفي الحقيقة أن ساطع ما زال يرى امكانية الاصلاح في ظل الإطار العام العثماني غير ان حدة طرح (ضيا غوكالب) لمفهوم النزعة التركية وسعيه إلى إقامة دولة سيدة تضم جميع أتراك العالم بقيم ثقافية تركية صرفة واحياء الاهتمام بالروابط اللغوية والتاريخية جعل النزعة التركية هي السياسة الغالبة، فاضطهدت الاقوام غير التركية، وتلاشت سياسة المساواة، واصطدم كل ذلك بخصوصية العرب، اللغوية والدينية والثقافية، وبدأ التململ القومي العرب بالمنتدى الأدبي في استنبول، وحزب اللامركزية الإدارية العثمانية في القاهرة والعهد والفتاة، وبدا لساطع أن رياح الانفصال بدأت تهب من الجانب العربي، إلا أنه رفض الانخراط في أي من التنظيمات السابقة، ورفض الاستجابة لعروضها بتولي وظيفة «المستشار العربي لوزارة المعارف في استنبول». ووقف الى جانب التغريب والانتماء العثماني.

غير أن نتائج الحرب الكونية الأولى وما ترتب عليها من هزائم للدولة العثمانية، ووعود للشريف حسين بن علي بدولة عربية مستقلة، وجد الحصري نفسه يرحل إلى دمشق، فهو عربي، وأنه حين انفصل العرب عن السلطنة العثمانية، لم يكن ثمة مندوحة من اللحاق بهم، فكان لا بد من اعتناق العروبة، ليتحول من ساطع بك العثماني إلى الحصري القومي العربي. وحتى نكون أكثر إلماماً بالمنعطفات المهمة في فكر ساطع

الحصري فيظل من المفيد أن نعرض لسيرة حياة ساطع الحصري قبل الاسترسال في مناقشة فكرة القومي العربي والعلماني. ولا نعتقد أننا سنضيف جديداً لما نشر عنه، فالرجل كتب سيرة حياته بقلمه. ودور الأراشيف العثمانية، والبريطانية والفرنسية والعربية تقتني ملفات خاصة لسيرته ونشاطاته، وما من باحث تصدى للكتابة عن الرجل إلا وترجم لحياته، إذ أن ظروف نشأته وثقافته والأعمال التي تولاها تركت بصماتها على تفكير الحصري. ففي مذكراته يصر على ضرورة تشكيل الحاء بالضم ثم تسكين الصاد ليكون اللفظ الحصري وليس بفتح الصاد، وزيادة في التوكيد فقد كتبها بالأحرف اللاتينية Husri.

ولد ساطع بن محمد هلال بن السيد مصطفى الحصري من والدين عربيين حلبيين في ٥ أغسطس، سنة ١٨٨٠م، في مدينة صنعاء اليمن، والدته، فاطمة بنت عبد الرحمن الحنفي، وجدته من جهة الأم، جميلة بنت أسعد الجابري. عاش ساطع في اسرة مكونة من خمسة عشر ولداً، ثمانية بنين وسبع بنات، وكان ترتيبه السادس بين اخوانه، عمل والده في سلك القضاء الشرعي في دير الزور وحماة وعمل رئيساً لمحكمة الاستئناف في ولاية اليمن لمدة سنتين، عاد بعدها الوالد إلى القسطنطينية أواخر عام ١٨٨١م. عمل الوالد في أضنة، أنقرة، طرابلس الغرب رئيساً لمحكمة الاستئناف ثم عاد إلى اليمن مرة اخرى ومن ثم نقل إلى قونيا فطرابلس الغرب للمرة الثانية.

يقول ساطع الحصري في مذكراته: «قدر لي ان اتنقل خلال السنوات الاثنتي عشرة الاولى من حياتي بين المدن التالية: من استنبول إلى أضنة ثم إلى انقرة إلى استنبول ومنها إلى طرابلس الغرب فاستنبول ثم إلى صنعاء ثم إلى استنبول فقونيا ثم استنبول، وكان الانتقال يتم بوسائل متنوعة وشاقة، الجمال، البغال، عربات الخيول، البواخر، السكك الحديدية، ولقد تركت هذه الرحلات التي تمت خلال طفولتي في نفسي أثراً من الانطباعات العميقة والذكريات المتنوعة».

لقد حالت كثرة تنقلات والده دون التحاق ساطع بمدرسة ابتدائية معينة، ومع هذا، فقد تعلم ساطع القراءة والكتابة التركية، والفرنسية في البيت. وحين عين والده رئيساً لمحكمة الاستئناف في طرابلس الغرب، ترك ساطعاً وراءه في استنبول ليدرس في المدرسة الملكية الشاهانية حيث استمر بها سبع سنوات، أربعاً في التعليم المتوسط، وثلاثاً بالقسم العالي.

كان ساطع مولعاً بالعلوم الرياضية، ولم يكتف بما يلقنه في مدرسته، بل كان يواظب على إستعارة مذكرات الرياضة التي كانت تدرس في مدرسة الهندسة ومدرسة أركان الحرب، وانثنى على العلوم الطبيعية يدرسها بالفرنسية، وواظب في مدرسته الشاهانية على دراسة العلوم الإدارية والسياسية. وبعد تخرجه في المدرسة الملكية، سنة ١٩٠٠م، عين مدرساً للعلوم الطبيعية في ولاية يانيا Joanian، الواقعة في أقصى غرب البلاد العثمانية، شمال بحر اليونان، وجنوب بحر الادرياتيك، واستمر بها خمس سنوات، وأتاح له قربه من أوروبا الحصول على الكثير من الكتب الفرنسية، والاشتراك في العديد من المجلات الاوروبية، وقد حصل على كثير من المواد والأدوات التي استطاع بها تحنيط الطيور والحيوانات وجمع الحشرات وعمل التجارب على زراعة النباتات المختلفة في مدرسة يانيا، ودرس ساطع المعلومات القانونية وعلم الثروة (علم الاقتصاد والتاريخ، وعلم التاريخ الطبيعي)، وهناك ألف عدة كتب مدرسية للزراعة والأحياء والحيوان، وعلم النبات والتطبيقات الزراعية. وأقرت وزارة التربية تدريس كتبه في المدارس الابتدائية والثانوية.

وأخذ ساطع من يانيا ينشر العديد من المقالات في الصحف التركية التي تتصل بالعلوم بهدف تبسيطها وجعلها سهلة وفي متناول الطلبة وعرض في بعض مقالاته للإكتشافات والإختراعات العلمية ولعلم الكيمياء والأشعة المجهولة والتلغراف اللاسلكي والعالم القطبي وغيرها من المواضيع التي تلقي الأضواء على المنجزات الحضارية في أوروبا، وضاق أخيرا بمهنة التدريس بعد تشديد الرقابة على المناهج وتحذيرات وزارة المعارف المتكررة من مغبة تجاوز المنهاج المقرر، واعمل مقص الرقيب حذفاً وتشويها بمقالات ساطع، فاستقال راغبا العمل في مقدونيا (أو الولايات الثلاث، سالونيك وموناستير

وقوصوة، ذلك أن الولايات المشار إليها شهدت نشاط جمعيات سرية، تسعى لتحرير مقدونيا من حكم الأتراك، وشعار تلك الجمعيات «مقدونيا للمقدونيين».

وفي صوفية تكونت جميعة ثورية طالبت بضم كل مقدونيا لبلغاريا، ثم كانت الثورة اليونانية، سنة ١٨٩٧م، وطبق على الولايات الثلاث برنامج مورستيج Mursteg، فتعين مستشارون روس ونمساويون للعمل مع حسين حلمي باشا، المفتش العام العثماني، وتولى جنرال إيطالي مهمة إعادة تنظيم قوات الشرطة (الجندرمة)، يعاونه مفتشون فرنسيون وإنجليز ونمساويون وروس وإيطاليون.

كان ساطع يرى بأن الوضع في مقدونيا أفضل بكثير من باقي الولايات التي استشرى فيه الفساد، وعاد الحصرى إلى استنبول حيث عين قائمقاماً في «رادويشتة» التابعة لولاية قوصوه، إحدى ولايات مقدونيا، القريبة من الحدود البلغارية، والتي شهدت الكثير من نشاط العصابات البلغارية، وبعد سنتين أمضاهما في رادويشتة، نقل قائمقاما إلى فلورينا التابعة لولاية موناستير، وفي فلورينا كان اتصال حركة الإتحاد والترقي به، حتى إذا ما أعيدت الحياة الدستورية في ٢٤ يوليو ١٩٠٨م، التهب الرجل حماسة، وكان خطيب فلورينا المفوّه بشراً وتعظيماً للديمقراطية والدستور.

وما لبث الرجل ان ترك العمل الإداري وفضل العودة إلى استنبول ليصدر مجلة أنوار العلوم التي ما عادت تغطي نفقات إصدارها، فعاد لنشر مقالاته في الصحف والمجلات المحلية، وخلال ذلك تولى إدارة مدرسة المعلمين في القسطنطينية التي بث فيها روحا جديدة، حيث أدخل علم النفس وفن التربية والتدريس، وأصدر أول مجلة تربوية باللغة التركية «مجلة التدريسات الإبتدائية». وأحدث ساطع انقلاباً جذرياً في المدارس التركية، حيث أخذت وزارة المعارف توزع مجلته على كل المدارس التركية، ودعا إلى عقد المؤتمرات التربوية لمناقشة قضايا التربية والتعليم، ودعم الوزارة بإنشاء أقسام في دور المعلمين لتخريج المدرسين، وواصل ساطع الحصري جهوده التربوية،فعلى أثر استقالته من إدارة دار المعلمين أصدر مجلة التربية، وأنشأ مدرسة خاصة سماها «المدرسة الحديثة». وألحق بها روضة سماها «عش الأطفال». وألحق بها دار المربيات لتخريج مربيات وفق الطرق الحديثة.

وحتى يطور برامج مدارسه ومشاريعه التربوية سافر إلى جنيف ولوزان وزيورخ وباريس ولندن وبروكسيل وميونخ وبرلين ليدرس أحوال التعليم في تلك المدن، ويطلع على المناهج التعليمية. وواصل ساطع الحصري جولاته الأوروبية والأمريكية دارساً لنظم التربية والتعليم، متردداً على المعارض والمؤتمرات التربوية حتى إذا انتهت الحرب العالمية الأولى غادر ساطع تركيا لتبدأ مرحلة جديدة من حياته في سوريا والعراق.

راى ساطع الحصري في الدولة العربية التي تكونت في سوريا تحت حكم فيصل الأول بن الحسين تجسيداً للحركة القومية العربية لانها نتاج الثورة العربية، جوهرها القومية ومظهرها يقدر الحياة العصرية تمام التقدير، حتى إذا ما حلت نكبة يوم ميسلون تمزقت الدولة وتبعثر رجال الثورة وتفرق دعاة القومية في مختلف الأقطار. وكان ساطع الحصري قد عين في سوريا، مفتشاً عاماً للمعارف ثم عين مديراً للمعارف في مجلس المديرين (مجلس الوزراء)، ثم وزيراً بعد الإستقلال حتى الإحتلال الفرنسي لسوريا.

في سوريا، عمل على إزالة اللغة التركية وآثارها من المدارس، وأسهم في تأسيس المجمع العلمي العربي السوري، وأسس مدرسة الحقوق، وأعداً تأسيس مدرسة الطب، حتى إذا ما أخرج فيصل من سوريا، غادر وإياه إلى إيطاليا، ومنها تحولا إلى العراق، وعمل ساطع الحصري في العراق عشرين سنة، دخلها مع فيصل وخرج منها مطروداً بأمر الوصي على عرش العراق، عبد الإله. وعمل في العراق مستشاراً لفيصل في أمور المعارف ثم تولى الوظائف التالية: معاون وزير المعارف، مدير المعارف العام، أستاذ في دار المعلمين العالية، مراقب التعليم العام، رئيس كلية الحقوق، و مدير الآثار القديمة، ومدير التدريس والتربية العام ثم مدير الآثار القديمة.

كان لمحاضراته التي يلقيها في النوادي المختلفة مثل المعهد العلمي ونادي المعلمين ونادي التضامن ونادي المثنى، الأثر الكبير في نقمة حكومة عبد الإله عليه، أدت إلى طرده من العراق وتجريده من الجنسية العراقية، سنة ١٩٤١م، حيث وصل إلى لبنان ليعاود نشاطه القومي العربي، فيضع مؤلفاً عن ابن خلدون يدافع فيه عن ابن خلدون تهمة احتقاره للعرب،ويأتي بالدلائل مايثبت أن ابن خلدون كان عالماً عربياً متنوراً. ويشارك في الحلقة

النقاشية التي عقدت في استنبول سنة ١٩٥٣م، ومحورها، علم الإجتماع عند ابن خلدون، ثم دعي ليكون مستشاراً فنيا للمعارف في سوريا، يتولى دراسة نظم التعليم السورية ويقترح ما يراه مناسبا، لاصلاحها، وقام الرجل بمهمته خير قيام وخلص التعليم السوري من تبعيته لنظام التعليم الفرنسي، وغرس الفكر القومي لدى الناشئة «فمهمة وزارة المعارف تربية الجيل الجديد تربية صالحة من جميع الوجوه البدنية والخلقية والفكرية ليصبح كل فرد من أفراده قوي البدن،حسن الخلق، صحيح الفكر، محباً لوطنه، معتزاً بقوميته، مدركاً لواجباته ومزوداً بالمعلومات التي يحتاج إليها».

كان ساطع يؤمن بأن وحدة الثقافة هي أس أساس الوحدة الشاملة. ولابد من تنظيم الصلات الثقافية بين البلدان العربية، وفي إطار هذا الفهم نجح في حمل الحكومة السورية على ضرورة تنظيم الصلات الثقافية بين سورية والبلاد العربية،وقد وافقت على رفع الموانع والحواجز التي تعرقل الصلات الثقافية وتحول دون توثقها، والعمل لضمان التقارب بين مناهج الدراسة في البلاد العربية المختلفة، وتوحيد الإتجاهات الأساسية المرسومة لها، والتعاون مع وزارات المعارف في البلاد العربية الأخرى في جميع الأعمال الإنشائية التي تساعد على تكوين ثقافة عربية موحدة.

ومنذ سنة ١٩٤٧م، انتقل إلى مصر حيث كرس جهوده لخدمة «الفكرة القومية»، وهناك صدرت حوليات ساطع الحصري الثقافية، وتولى منصب مستشار الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية. ثم عين سنة ١٩٥٣م أول مدير لمعهد الدراسات العربية العليا واستاذاً في مادة «القومية العربية» لكنه رأى أن المعهد لم يحقق رسالته، وأنه قد حاد عن الأهداف العليا التي تأسس من أجلها، وقدم بعض الإقتراحات لرفع مستوى المعهد، ولما لم يؤخذ بتلك الإقتراحات فضل الإستقالة من إدارة المعهد سنة ١٩٥٦م، ومن أستاذيته سنة ١٩٥٧م، مفضلاً التفرغ للكتابة ونشر المؤلفات والبحوث التربوية والقومية. وكرمته الجمهورية العربية المتحدة سنة ١٩٦٤م، بشخص رئيسها جمال عبد الناصر، وضيفه شوان لاي بوصفه فيلسوف العروبة، وكبير الناطقين عن القومية، ومنحته الحكومة المصرية جائزة الدولة التقديرية في العلوم الإجتماعية، سنة ١٩٦٥م، ومن ثم أعيدت إليه

الجنسية العراقية، فأسرع بالعودة إلى بغداد ليصبح أستاذاً غير متفرغ في جامعة بغداد، واستقرت به الرحال في بغداد إلى الأبد، ففي ٢٤ ديسمبر ١٩٦٨م، وقف نبضه واستراح قلبه وهو على مقعد المطالعة والبحث، بعد حياة حافلة بالأمل والألم، المعاناة والشقاء، الرحيل والهروب، التحدي والمواجهة.

العروبة في فكر ساطع الحصري:

كتب ساطع الحصري ١٩٤٥م، يقول: «إني من الذين يؤمنون بالوحدة العربية إيماناً عميقاً، ومن الذين يقولون بوجوب العمل من أجلها عملاً متواصلاً دون توان أو تخاذل، أنني أعتقد جازماً بأن الوحدة العربية ضرورية لحفظ كيان الشعوب العربية، كما أعتقد أنها طبيعية بالنسبة إلى حياة الأمة العربية وتاريخها الطويل، فلاشك أبداً في أنها ستحقق يوماً من الأيام إن عاجلاً أو آجلاً»، ويضيف ساطع الحصري في مكان آخر «غير أني أقول بكل إخلاص، إذ قدر لي أن أدرك اليوم الذي ستتحقق فيه الوحدة العربية سأعتبر نفسي أسعد الناس جميعاً، وسأنسى كل ماكابدته من مشاق وآلام، وسأترك هذه الحياة راضياً مرتاحاً كأنني لم أتعب أبداً، ولن أشعر بذرة من الألم».

كان ساطع الحُصْري يؤمن بأن أولى الخطوات لتحقيق الوحدة العربية هو الإيمان بحتمية هذه الوحدة،طال الزمان على تحقيقها أو قصر، فهي آتية لاريب فيها، ولكن لابد من إيقاظ الشعور بالقومية العربية وبث الإيمان بوحدة هذه الأمة، وعند ساطع فإن الوطن العربي يمتد من المحيط الأطلسي إلى الخليج العربي وجبال زاغروس، ويشمل جميع البلاد التي يتكلم أهلها اللغة العربية، وأما الدول والدويلات القائمة بين هذه المناطق، فإنها وليدة المناورات والمساومات والمقاسمات التي قامت بين الدول المستعمرة وينتهي ساطع الحصري من دعواه ضد الحدود العربية بوصفها حدود (الحبس الإنفرادي) و (الإقامة الجبرية).

يعتبر ساطع الحصري أن الإيمان بالوحدة العربية ينبغي استباقه بالمعرفة بحقائق أمتنا العربية، فالمعرفة هي السبيل إلى الإيمان بالوحدة العربية، لا سيما وأن الأجيال العربية تنازعتها تيارات وتأثيرات، مثل الجامعة العثمانية والجامعة الإسلامية والرابطة الشرقية،

والنزعات الإقليمية والنزعات العالمية، ولكي نضمن نجاح فكرنا لابد من حماية ناشئتنا من تلك التيارات والتأثيرات، بوسائل التعريف والإقناع والتلقين والإيحاء والتحبيب والتحميس، وهدفنا غرس الإيمان بالفكر القومي في نفوس وعقول أبناء الأمة العربية. وعمل ساطع الحصري علىتعميق وتثبيت جملة من الحقائق، أراد من كل أبناء الأمة العربية حفظها عن ظهر قلب، ألا وهي:

- إن جميع البلاد التي يتكلم سكانها اللغة العربية، هي عربية مهما تعددت أشكال الحكومات المسيطرة عليها، فرنسية أو إيطالية أو بريطانية، حيث أن الأعلام التي ترفرف على البنايات الحكومية لا يمكن أن تحدد هوية الأمة.

بلاد العرب أوطاني من الشام لبغدان
ومن نجد إلى يمن إلى مصر فتطوان

- إن كل من ينتسب إلى البلاد العربية ويتكلم اللغة العربية فهو عربي مهما كان اسم الدولة التي يحمل جنسيتها وتابعيتها بصورة رسمية، ومهما كانت الديانة والمذهب الذي ينتمي إليه، ومهما كان أصله ونسبه وتاريخ حياة أسرته.

- إن الدول العربية القائمة الآن لم تتكون ولم تتعدد بمشيئة أهلها ولا بمقتضيات طبيعتها، وإنما تكونت نتيجة الإتفاقات والمعاهدات التي عقدت بين الدول التي تقاسمت البلاد العربية وسيطرت عليها، والحدود الفاصلة بين الدول لم تكن وليدة اتفاق مصالح أبناء الأمة العربية، وإنما قررتها المساومات والمناورات الطويلة التي جرت بين الدول المسيطرة ضماناً لمصالحها، والفروقات والإختلافات التي تشاهد بين الدول العربية من حيث النظم والتشريعات والإتجاهات، إنما هي من مواريث عهود الإحتلال.

- العرب أمة واحدة، وما المصريون والعراقيون والمغاربة ... الخ إلا شعوب وفروع لأمة واحدة، هي الأمة العربية.

- تلك الحقائق الأربع هي التي يجب أن تكون سبيلنا إلى تقوية الإيمان وتثبيت دعائمه في الفكر العربي، ودافع بلا هوادة عن تلك الحقائق مستشهداً بالدولة السلاقية

الواحدة التي تشكلت من ولايات سلافية وكرواتية وسلوفينية والبوسنة والهرسك، واستشهد أيضاً بواقع أندونيسيا عقب استقلالها عن هولندا، ويضرب أمثلة بالهند والباكستان في حينه. ويعتقد ساطع الحصري بأن فكرة الوحدة العربية قد خرجت من دائرة الخيال المحض لتدخل في طور التنفيذ والتحقيق. «لسنا الآن في بداية الطريق المؤدي إلى الوحدة، بل دخلنا فيه فعلا»

ويتكئ ساطع الحصري على احداث التاريخ العربي المعاصر، ليبرهن على أن الوحدة آتية لا ريب فيها، ويضرب أمثلة من التاريخ السوري بعد احتلال سوريا من قبل فرنسا بقيادة غورو، عقب معركة ميسلون حيث تبعثرت الدولة العربية، وتناثرت أشلاؤها، فقد سلخ غورو البقاع وبعض المناطق الأخرى وألحقها بلبنان في سبتمبر ١٩٢٠م، ثم بعد أسبوع فصل حلب وأنشأ بها دولة، وأعلنت دولة جبل العلويين ثم دولة الدروز، وما عتم الفرنسيون حتى قبلوا مع بداية عام ١٩٢٥م، قيام الدولة السورية الموحدة، ماعدا جبل العلويين وجبل الدروز حيث ضمت سنة ١٩٤٤م، وما حدث في المملكة العربية السعودية ينهض دليلاً على صدق دعوى الحُصْري في وحدة الأمة وتخطيها للعوائق المصطنعة، فأراضي الجزيرة كانت مقسمة بين إمارة آل رشيد، شمال نجد، وسلطة آل سعود في أقسام أخرى من نجد، المملكة العربية الهاشمية في الحجاز، وإمارة الإدريسي في عسير، ثم قام عبد العزيز آل سعود بعدة حملات عسكرية، أعادت الوحدة إلى الجزيرة العربية من إمارتين وسلطنة ومملكة، وكانت نتائج تلك الحركات التوحيدية التي قام بها الملك عبد العزيز بن سعود موافقة لمصلحة الأمة العربية، فعند ساطع الحصري «أن ما قام به الملك عبد العزيز بن سعود كان بمثابة خطوة من الخطوات الضرورية للسير في سبيل تحقيق الوحدة العربية»، فهو يقول ذلك، لأنه ينظر إلى القضايا القومية بنظرات مجردة من النوازع الشخصية، ويضع مصلحة القومية العربية فوق كل اعتبار.

يعتقد ساطع الحُصْري بأن الوحدة العربية حقيقة واقعة، وأن الأمر ليس فيه استحالة أو صعوبة، ولكن العوائق أتت من نظرتنا إلى الوحدة بالنظرة الإقليمية المحضة، فكل دولة غدت لها بؤرة لوطنية خاصة تستقطب ولاء الأهالي لها، ولذا ترانا ننزع إلى المحافظة على الكيان السياسي القائم، وأحكمت عُرى الإتصالِ بين الإقليمية وصورة الدولة، حتى

غدت الإقليمية نتيجة طبيعية لوجود الدول العربية ثم إن أنماط الحياة السياسية الداخلية والخارجية في تلك الدول غدت بطبيعتها النوازع الإقليمية فكل دولة دعمت إقليميتها الخاصة، بعلم وشرطة وجيش وأوراق وجوازات ونقود تختلف عن الدولة الأخرى، وعاش الإنسان العربي ومنذ نعومة أظافره في ظل ثقافة وفكر إقليمي، ارتبط به نفسياً وشعر بأن له خصوصية أخرى مخالفة عما عند غيره من الدول العربية.

وأصبحت فكرة القومية العربية خواطر تختلج في الصدور، بلا دعامة ولا سند بل تجد معارضة شديدة من قبل النوازغ الإقليمية وتعمقت الإقليمية، فلكل دولة عربية قوانينها واقتصادها ونظمها التعليمية والثقافية وإذاعتها وصحافتها وكلها تجد في تعميق عوامل الفصل بين ابناء الأمة الواحدة، والأدهى والأمر ابتلاء الأمة العربية بطبقة من الزعماء والحكام والساسة الذين ارتبطت منافعهم ومطامعهم بالاوضاع السياسية القائمة، فاستماتوا في المحافظة على كيان الدولة وعدم التفريط به في ظل أية دولة وحدوية أخرى، ثم إن القوى الطامعة في خيرات البلاد العربية ترى من مصلحتها أن يستمر التباعد والتخالف بين البلاد العربية، ولذا تعمل تلك الدوائر على إثارة الروح الإقليمية في مختلف البلاد العربية.

رأى الحُصْري في الطروحات الإقليمية الخطر الأكبر تجاه الوحدة والقومية، ولذا فقد وقف بعناد ضد الفكر الإقليمي، وبدأت معاركه الشديدة في وجه الفكر الإقليمي حين سأله أحدهم،متى كانت مصر مع العرب؟ أجاب الحُصْري في نقده لنظام التعليم في مصر، بقوله: «أرجو ألا يعتبرني أحد متطفلاً على مصر بهذه الملاحظات، فإني عربي صميم، أدين بالعروبة التي تملأ كل جوانحي، وأهتم بمصر قدر اهتمامي بسورية والعراق، ولا أكون مغالياً إذا قلت إنني أهتم بمصر أكثر مما أهتم بسورية والعراق، لأني أعرف أن مصر بحسب أوضاعها العامة أصبحت القوة المؤثرة على الوطن العربي بأجمعه».

ويناقش ساطع الحُصْري النزعات التي تتجاذب مصر، فالبعض يريد لمصر أن تتجه نحو الرابطة الإفريقية أو رابطة المتوسط أو الجامعة الإسلامية، ويخلص إلى النتائج التالية:

- إن وضع مصر من حيث اللغة والثقافة هو أنها تقع في وسط عالم عربي واسع الأرجاء يمتد من شواطئ المحيط الاطلسي في الغرب إلى هضاب إيران في الشرق، فمصر قريبة من الوجهة الثقافية من البلاد العربية.

- أنكر ساطع الحصري على القائلين بانتماء مصر لرابطة البحر المتوسط قولهم الذي لا ينتمي إلى تفكير علمي صحيح، وحذر المصريين من مغبة تلك الحيلة لإبعادهم عن فكرة العروبة، وعند الحصري أن الرابطة الإسلامية رابطة معنوية تستمد قوتها من العواطف الدينية.

وشغلت بال الحصري أيضا محاولات بعض المفكرين المصريين صياغة هوية ثقافية مصرية حديثة خاصة تستند على التراث الفرعوني، واعترض في هذا السياق على كتاب طه حسين «مستقبل الثقافة في مصر». وفيه: في الوقت نفسه احتفظت مصر بهوية خاصة فرعونية في الجوهر،فطه حسين يردد: «أن الفرعونية في نفوس المصريين، وأن على مصر بأصالتها الفرعونية ألا تذوب في المحيط العربي، وأن تحافظ على هذه الأصالة».

ورد الحصري بأن مصر لا تقدر على نبذ العروبة الحية بحجة الإنتماء إلى حضارة فرعونية، فالأهرام لا تنفي أن مصر تتكلم العربية، والقومية العربية لا تقتضي تدمير الآثار الباقية من مصر القديمة أو زوال المفاخرة بها، ويخلص الحصري «بأن العروبة تكون أهم وأمتن الروابط التي تربط المصريين بعضهم ببعض، لأن جميع المصريين سواء أكانوا مسلمين أو مسيحيين، شرقاويين أو صعيديين،يتكلمون اللغة العربية، إذن، فنحن نستطيع أن نؤكد أن مصر عربية ومستقبلها مرتبط بمستقبل العروبة أشد الارتباط». ويترتب على المصريين أن يقولوا نحن المصريين عرب، مصر وطننا الخاص، والعالم العربي وطننا العام.

وفي رده على أولئك الذين يعارضون فكرة الوحدة، على أساس أن العرب ضعاف والوحدة لن تفيدهم شيئاً، إذ لا فائدة من إضافة أصفار إلى أصفار، يقول: «إن اتحاد شعوب الأمة العربية ليس بمثابة ضم أعداد إلى اعداد بصورة حسابية، ولا ربط شيء بأشياء بطريقة ميكانيكية ولا ضم مساحات إلى مساحات بصورة هندسية. وإنما يكون بمثابة خلق كائن جديد، وعضوية جديدة تصبح فيه الشعوب المتحدة بمثابة الأعضاء في

البدن الواحد». ثم يقول ساطع الحصري «علينا أن نكف عن اعتبار أنفسنا وشعوبنا أصفاراً، وعلينا أن نكف عن تشبيه قضايا اتحاد الأمة بعمليات جمع الأعداد».

وتظهر المحاورة التي طرحها فتحي رضوان في ٢١/ ٣/ ١٩٥٣م، بسؤاله عن هوية المصريين، عمق فهم ساطع الحصري لهوية مصر، فقد رد عبد الرحمن عزام الذي يقول «نحن مصريون أولاً وعرب ثانياً ومسلمون ثالثاً» ومصر هي المدرسة الأولى للبشرية، مصر فضلها الله على العالمين. أما حسين كامل فيرى «نحن مصريون أولاً وأخيراً». وفكري أباظة يرى «نحن مصريون قدماء لا شيء غير ذلك». أما الحصري فيرد بأن هؤلاء «ما هم إلا حصيلة الضلالات النابعة من عدم تفهم المصالح الحقيقية لبلادهم». وحين كتب إحسان عبد القدوس مقالاً بتاريخ ٢٨/ ١٢/ ١٩٥٣م، بعنوان مصر أولاً، جعل «الوحدة العربية في صف مع الوحدة الإفريقية والآسيوية»، وقد نقده الحصري لأنه لايدرك المصالح الحقيقية لمصر، وعدم تقديره لوحدة اللغة والتاريخ وتصدى الحصري أيضاً لأطروحات الحزب السوري القومي ونقد كتاب فيلسوفه أنطون سعادة، «نشوء الأمم»، حيث يعتقد سعادة «بأن الامة عضوية اجتماعية، ثابتة لا تتغير، تشكلت مع غابر الأزمان في حدود جغرافية معينة، واستنتج وجود أمة سورية متميزة في سوريا ولبنان وفلسطين والأردن».

إن مثل هذا الطرح يحمل فكرة «الرسالة السامية» و «النظرة المتعالية» للأمة السورية. وهذا يجعل سوريا السامية في مجابهة مع باقي الشعوب العربية، وينعى الحصري على سعادة قوله «بأن نفسية القومية العربية عبارة عن مرض نفسي شوه العقل السوري والإدراك والمنطق، بوهم الوحدة العربية، وخيال العروبة، وهذيان الوحدة».

وعقد الحُصْري محاورة مع جريدة «العمل» لسان حزب الكتائب اللبنانية، تناول أيديولوجية الكتائب القائمة على وجود الفوارق الجدية بين اللهجات المستعملة في البلدان العربية والتي تفضي بان كلاً من هذه البلدان يمثل كياناً واقعياً، ويرد الحُصْري بأنه إذا كانت اللهجات هي التي تحدد واقعية الكيانات العربية، فإن اللهجات متعددة، حتى بين كل مدينة وأخرى، فلو احتكمنا إلى اللهجات، لغدت كل مدينة كياناً واقعياً كما

يزعمون؟! وذهبت العمل إلى أن تقسيم البلاد العربية إلى دول سيساعد على تقدم الشعوب العربية، حيث تقل الإقتطاعات فيه، وينتفي إستغلال البشر، ويرد الحصري بأن الواقع لا يغيره وجود دول متحدة أو متفرقة، مادامت الحكومات لا تعمل لمصالح الشعب الحقيقية، فالتقدم والقضاء على الإقطاع، مسائل تتعلق بمصداقية الحكومات القائمة في الوطن العربي. وترى جريدة «العمل» بأن دولة الوحدة، ستكون شديدة المركزية تنتفي فيها الديمقراطية الحقة هي التي تستند على المجالس التمثيلية المحلية، ذات السلطات الحقيقية، ويخلص الحصري إلى أن الوحدة العربية هي قدر الأمة العربية طال الزمن أو قصر، وأن قطار الوحدة سيضم كافة البلدان العربية.

القومية في فكر ساطع الحصري:

تعتبر دراسات ساطع الحصري عن القومية محور كل أبحاثه، وأهم وأغزر ما أنتج من فكر، فالإيمان بالقومية العربية مسألة حيوية لا بد من رسوخها عند أبناء الأمة العربية. فجاءت مؤلفاته «آراء وأحاديث في الوطنية والقومية»، و «حول القومية العربية»، و «محاضرات في نشوء الفكرة القومية» و «ماهي القومية» و «العروبة بين دعاتها ومعارضيها»، وغيرها من المؤلفات والمصنفات والمحاضرات لتضع الأسس العلمية للفكر القومي في عصره، فقد انتقل من عوامل بعث الفكر القومي إلى تقوية الشعور القومي وتغذيته فالعمل على تجذير ذلك الفكر، ومن خلال متابعتنا لآراء ساطع الحصري القومية، نلحظ أنه بنى نظريته القومية على الأسس التالية:

- رفض تسيير التاريخ العثماني كامتداد للتاريخ الإسلامي، لأن تلك النظرة جعلتنا لا نشعر بأننا أبناء أمة مغلوبة على أمرها مستسلمة لسلطان أجنبي، ونسينا بأن لنا قومية خاصة متميزة عن الأتراك العثمانيين، وحتى عن سائر المسلمين، وذهب ساطع الحصري إلى أن استقراء واستنطاق التاريخ لا يثبت بأن الخليفة العباسي قد تنازل لأي سلطان عثماني عن الخلافة، وإنما هي رواية أشاعتها المصادر العثمانية لضمان ولاء وخضوع الأقطار العربية.

- نبه إلى الفوارق الفكرية لمفهوم القومية عند الفرنسيين، واختلاف مضمونها عن الفهم الفكري للقومية عند العرب.

- أوضح ساطع الحصري بأن اسس القومية عنده تقوم على اللغة والتاريخ ويرى ساطع الحصري كما الألماني هردر Herder بأن أس الأساس في تكوين الأمة هو وحدة اللغة، ففيها كل ذخائر الفكر والتقاليد والتاريخ والفلسفة والدين، وأطنب ساطع في مناقشة أولئك الذين عارضوه.

ويشكل مفهوم الامة العربية الواحدة محور نظرية الحُصْري في الوحدة العربية، فالأمة، كائن عضوي، له حياته، وله شعوره، فاللغة حياة الأمة والتاريخ شعورها، واللغة والتاريخ هما العاملان الأصليان اللذان يؤثران أشد التأثير في تكوين القوميات، ولكن اللغة لها الدور الرئيسي «فالأمة التي تنسى تاريخها تكون قد فقدت شعورها وأصبحت في حالة السبات، ةوإن لم تفقد الحياة، وتستطيع هذه الأمة أن تستعيد وعيها وشعورها بالعودة إلى تاريخها القومي والإهتمام به اهتماماً فعلياً، ولكن الأمة إذا ما فقدت لغتها، تكون عندئذ قد فقدت الحياة ودخلت في عداد الأموات». ويستبعد الحصري وحدة الأصل ويرى بأن وحدة اللغة توجد نوعاً من الوحدة في التفكير وفي الشعور، وتربط الأفراد بسلسلة طويلة ومعقدة من الروابط الفكرية والعاطفية.

ويؤكد الحصري على التاريخ وأهميته كأساس للمشاعر القومية، ويعني به وعي الذات التاريخي الذي ينعكس في الشعور النفساني العاطفي بالوحدة في الماضي وهو حين يتحدث عن التاريخ، لايقصد به التاريخ المدون والمسجل في الصحائف والمخطوطات، بل يقصد التاريخ الحي في النفوس، الشائع في الأذهان، المستولي على التقاليد، هذه الوحدة في التاريخ تولد تقارباً في العواطف والنزعات، في الآمال والأماني والمفاخر والذكريات . وتنمي الشعور القومي، وقد أعاد الحصري النظر في تقويم دور وحدة الأرض (الإتصال الجغرافي) كواحد من عوامل القومية، فقد انتقل من الإعتراف بأهمية هذا العامل إلى إنكارها أنكاراً تماماً.

ففي محاضرة ألقاها سنة ١٩٢٨ بعنوان «عوامل القومية» أشار الحصري إلى أنه «لا يتغلب عامل من العوامل الإجتماعية على تأثير اللغة والتاريخ، سوى عامل الإتصال الجغرافي، لأن فقدان الإتصال الجغرافي قد يؤدي إلى بقاء أجزاء الأمة الواحدة منفصلا بعضها عن بعض، رغم اتحادها في اللغة والتاريخ». كان ذلك غداة اشتداد الهجمة الأوروبية على الوطن العربي، ولكنه في أعمال لاحقة نقد عامل الجغرافي واعتبره حصيلة الأخطاء النظرية، وعاب على أنصار الإتصال الجغرافي أنهم «لايميزون الأمة عن الدولة تمييزاً صريحاً، والأمة لا يكون لها أرض مشتركة، أو أرض معلومة الحدود إلا إذا كونت دولة قومية واحدة، ومعنى ذلك أن الحصري أسقط وحدة الأرض من بين عوامل القومية، حيث صارت القومية ظاهرة معنوية لا ارتباط لها بالظروف الموضوعية، حتى وتقوم على النقيض منها».

العلمانية في فكر ساطع الحصري:

ترى الباحثة الروسية تاتيانا تيخونوفا بأن ساطع الحصري وضع أول نظرية علمانية متكاملة في القومية العربية، «إذ ارتكز على التقاليد العلمانية التي ارسيت في الربع الأخير من القرن الماضي في عدد من البلدان العربية». حيث عكست أعمال الحصري المشكلات المحورية لمراحل عدة في مسيرة حركة التحرر الوطني العربية، وعبرت عن الإتجاه العام لتطور الوعي القومي العربي. والعلمنة تعني بالمفهوم الأوروبي، تحرير الشعب من نير رجال اللاهوت، وتنويره في المعاهد المخصصة لإشاعة التفكير العصري، وأما الدين فقد كان الحصري يعتقد بجدوى استخدام الإسلام واحداً من مقومات الرابطة العثمانية، ولذا نراه يشيد بدور الدين عامة في تكوين الأمم، غير أن نظرة الحصري إلى العامل الديني تبدلت حين ربط تعزز تاثير عامل وحدة اللغة في الحياة الإجتماعية بفقدان وحدة الدين قوتها وتأثيرها في هذا المضمار، ويشير الحصري إلى أن «عمل وحدة اللغة في الحياة الإجتماعية والحوادث التاريخية يختلف عن عمل وحدة الدين اختلافاً كلياً». ليصور الدين شكلاً من الأيديولوجية الإجتماعية.

وتورد الباحثة الروسية عدة استنتاجات كمحصلة لدراسة نقدية أجرتها على فكر الحصري الديني، وملخص هذه الإستنتاجات:

- إن تأسيس نظرية الأمة العربية الواحدة والقومية العربية كتيار متميز عن الرابطة الإسلامية والجامعة العثمانية، كان لابد من أن يدفعه إلى دراسة دور الإسلام والدين في تكون الأمة.

- إن الصراع مع التيارات الإيديولوجية (الرابطة الإسلامية، الحركات الداعية لعودة الخلافة) كان يدفعه أحياناً للقول بالإسلام ديناً قومياً للعرب.

- إن التصدي للتيارات الداعية إلى نظام الخلافة كان وراء وقوفه ضد استخدام الإسلام كأيديولوجية سياسية، وقوله بالعواقب الضارة لتوظيف الإسلام لأغراض سياسية.

- ذهب في تقويمه للإسلام كعامل ثقافي، بأنه ليست ثمة ثقافة واحدة تجمع المسلمين لا في العصرالحاضر ولا الماضي ولا المستقبل، وإنما فضل الإسلام عند الحصري يظهر للعيان الأمور التالية:

* تقويم الدور منقطع النظير الذي قام به ظهور الإسلام في تكوين الأمة العربية وتوسيع نطاق العروبة.

* لقد حافظ الإسلام على هوية الأمة العربية، ثم أنه ساعد من خلال الفتوحات موضوعياً على استعراب الشعوب الأخرى، ولما كان الإسلام بطبيعته لم يجبر أهل البلاد المفتوحة على اعتناق الإسلام، فقد نشأت جماعات عربية غير مسلمة، اشتركت مع المسلمين بالحياة العلمية والأدبية وساهمت في الإنتاج العلمي والأدبي مساهمة فعالة.

ويعتبر الحصري القرآن هو الحافظ لوحدة العرب اللغوية، وبالتالي حفظ كيان الأمة، فهناك عوامل عدة عملت على ارتخاء الروابط المادية والمعنوية بين مختلف الأقطار العربية، وأطلق العنان للهجات العامية. فكان القرآن هوالحافظ لوحدة تلك الأقطار. ويؤخذ على الحصري اعتباره الإسلام عقيدة لم تتمكن من ضمان وحدة راسخة بين المسلمين، فشعار «الإسلام دين توحيد». متعذر عملياً على التطبيق نظراً لما بين الأقطار

الإسلامية من فروق اجتماعية واقتصادية وسياسية.. ويروج الحصري لضرورة فصل الدين عن الدولة كنتيجة قانونية وحتمية لتطور المجتمع في مرحلة تاريخية معينة، متأثراً في ذلك بالأطروحات الغربية أمثال روسو وفيخته،ويصل في بعض أفكاره إلى أن الدين أداة للإضطهاد الإجتماعي.

وقد أثارت مواقف الحصري من الدين حفيظة العديد من علماء المسلمين، ولكن الحصري لجأ للإستشهاد بكتاب، الإسلام وأصول الحكم لعلي عبد الرازق، الذي دعا فيه المؤلف، إلى فصل الدين عن الدولة، وخطا الحصري خطوة أكثر جرأة، حين استشهد بأحدى مقالات جمال الدين الأفغاني «مقالات جمالية» المطبوعة بالفارسية والتي ترجمت إلى التركية ونشرت في مجلة «موطن الترك» في استنبول، حيث يرى الحصري بأن الأفغاني أورد في المجلة المذكورة آراءً مخالفة لما كان قد ذكره في مجلة العروة الوثقى، فهو وإن قال في العروة الوثقى «إن رابطة المسلمين الملية أقوى من روابط الجنسية واللغة» فإنه ذهب في مجلة «موطن الترك» إلى أن «لا سعادة إلا بالجنسية، ولاجنسية إلا باللغة، ولا لغة مالم تكن حاوية لكل ما تحتاج إليه طبقة أرباب الصناعات والخطط في الإفادة والإستفادة».

ويخلص الحصري إلى أن الأفغاني صار في أواخر حياته وبعد الإطلاع على حياة الأمم خارج العالم الإسلامي، من أنصار المعتقدات القومية. وقد كانت للحصري آراء واضحة اتصلت بالقومية والمشيئة القومية والحياة الإقتصادية،والقومية والدين، والقومية ووحدة الأصل، وعنده أن الأرض المشتركة هي كأساس من أسس القومية.

ساطع الحُصْري والنقد:

نظرت فئة قومية عربية إلى فكر ساطع الحُصْري بأنه حشو، وقد قدم عليه الزمن، ويعتبر ميشيل عفلق مجهودات ساطع الثقافية ذات طبيعة غير مجدية فيقول في كتابه، في سبيل البعث، (ص٢٠) «إنه لمن العقيم لهم أن يبتغوا قوميتهم بتحليلها سطحياً إلى عناصرها، ومن ثم إعادة تركيبها بصورة مصطنعة استمداداً من الكتب والتفكير المجرد والقدوات المأخوذة من أمم أخرى، إنهم سوف لن يجدوا القومية إلا في ذواتهم، وقد انصهرت

عضوياً في الواقع»، ويضيف عفلق «إن القومية العربية بالنسبة للبعث هي حقيقة واقعة تؤكد نفسها، إنها لا تتطلب أي بحث أو نضال، وإن كان محتواها يخضع للنقاش والنضال، لذلك فنحن لا نحتاج إلى النظر فيما إذا كنا عرباً أم لا، بل إن ما يجب علينا أن نختاره ونحدده هو محتوى العروبة في المرحلة الراهنة».

ووصف جماعات اليسار الجديد في المشرق العربي، فكر الحصري بأنه تقليدي ومحافظ، بل ورجعي. ويبدو لنا ان منتقديه قد أغفلوا المنظور التاريخي لعمله، وحملوا النصوص التي أوردها أكثر مما تتحمل، فالحصري وإن اقترب من التيارات الفكرية الأوروبية في نظرياته إلا أنه لم يكن ناقلاً أو مستعيراً لتيار القومية الأوروبية دون غيره من التيارات الأخرى، وإنما حاكم التيارات الفكرية الأوروبية بنظرة شمولية مدققة وفاحصة، فكانت هناك جملة عوامل جوهرية جعلته يختار الفكرة بصورة مطلقة ولم يقصرها على الأوربة فقط، فما كانت آراء الحصري في القومية شكلاً من التقليد الثقافي الصرف، ولا صيغة عقائدية أعدت لتلائم أهداف وأغراض الثوريين العرب، إنها ثمرة جهود مفكر عربي أفصح عن آراء واهتمامات مجموعة اجتماعية معينة في المجتمع العربي خلال فترة معينة من الزمن.

وكانت أقسى الإنتقادات للفكر القومي قد جاءت من الجماعات الدينية ففي كتاب نقد القومية العربية على ضوء الإسلام والواقع، يقول عبد العزيز بن باز: «من سبر أحوال القوميين وتدبر مقالاتهم وأخلاقهم وأعمالهم، عرف أن غرض الكثيرين منهم من الدعوة إلى القومية أمور أخرى يعرفها من له أدنى بصيرة بالواقع وأحوال المجتمع، ومن تلك الأمور، فصل الدين عن الدولة، وإقصاء أحكام الإسلام عن المجتمع، والإعتياض عنها بقوانين وضعية ملفقة من قوانين شتى، وإطلاق الحرية للنزعات الجنسية والمذاهب الهدامة».

ويتفق ابن باز مع الحصري بأن الدين ليس من عناصر القومية، وعنده أن القومية تنافس الإسلام وتحاربه في عقر داره، بل إنها من عناصر تفريق الأمة، ودعوة جاهلية وسلم إلى موالاة كفار العرب وملاحدتهم.

لقد كان صالح بن عبد الله العبود أكثر صراحة في نقده لفكر ساطع الحصري، وذلك من خلال كتابه، فكرة القومية العربية على ضوء الإسلام، إذ بدأه بتوجيه الإتهامات لساطع الحصري، وعنده أن ساطعا نشأ في أحضان الأفكار الفرنسية الوضعية والقومية الأوروبية، وأن اليهود كان لهم دور في نشوء فكرة القومية عند العرب وكذا النصارى وحتى الاحزاب العربية كانت متورطة في خدمة الدول النصرانية الكبرى، فالفكرة القومية عنده، أوروبية نصرانية يهودية، وينفي أن يكون في القرآن الكريم أو في السنة، دعوة إلى العروبة ولا إلى العربية كغاية يتنهي اليها، وإنما فيهما الدعوة إلى الله والدار الآخرة، وقد خصص المؤلف بضع عشرات من الصفحات يناقش وينقد ويعرض لأفكار ساطع الحصري المناقضة للسلطات الوازع والدين الراشد، حسب قوله، وانتهى إلى القول:

- «إن الإعتقاد بأن القومية العربية ذات قوة رابطة فعالة موحدة كما هو المبدأ الأوروبي في القومية سواء جعل محور هذه الرابطة الوطن واللغة أو التاريخ أو الجنس أو هي مجتمعة أو بعضها أو أي شيء من دون الله اعتقاد باطل».

- إن القول بأن اللغة حياة الأمة وروحها شرك في ربوبية الله تعالى أغلظ من شرك الجاهلية، ثم القول بالإيمان بالقومية العربية بهتان ما بعده بهتان.

وعلى صعيد آخر، فإن فلاسفة الماركسية نقدوا هم الآخرون نظريات ساطع الحصري،فحاكموا نظريات الحصري بتلك الإزدواجية التي أشار إليها لينين في معرض حديثه عن موقف الماركسيين من النزعة القومية لدى الأمم المضطهدة، فقرنت دعوات الحصري بالعلمانية والتوجه لمعاداة الإمبريالية والتطلع الديمقراطي العام مع الدعوة إلى السلام الطبقي، وهذا ما ترفضه الماركسية اللينينية، إذ بدت آراء الحصري الطبقية محدودة اعترف في نهاية الأمر بضرورة حل مسألة التناقض والعوائق بين الطبقات الإجتماعية المعطلة للوحدة والنظرية القومية.

وبالإجمال، فإن ساطع الحصري نجح في تخليص الثقافة العربية من كل الشوائب الغريبة عنها ونظر إليها كوحدة مركبة عالية تتولد من تمازج الكثير من الأمور المختلفة، وكان من

الرعيل الأول الذي دعا إلى القومية العربية، وأعطى للأمة العربية برنامجاً قومياً اتصف بالرصانة وعمق الجذور، حتى وإن التزم بالمنهج الوضعي والنزعة الثقافية التربوية المقللة من شأن عامل الدولة في تكوين الأمة، ولكن مساهمته كانت كبيرة في بناء نظرية القومية العربية والوحدة العربية.